اللغة الشعرية عند المتنبي

الأستاذ: مرضي مصطفى

جامعة ابن خلدون- تيارت

إنّ الدارس لشعر المتنبّي يواجه ثروة لغوية واسعة تتجاوز حدود الفصيح إلى الغريب والشاذ الذي لا نكاد نجد له أثرا إلا في كتب الغريب وكتب النوادر، وهو أمر يرجع إلى جرأته على اللغة مما جعله يبتكر أنساقا تعبيرية لم تسمع من قبله من خلال استعمال الألفاظ المألوفة تارة والمهجورة تارة أخرى. هذا الأسلوب في التعامل مع اللغة أنتج لغة شعرية فريدة خاصة به، مكنته من التربع على منزلة مرموقة في الشعر العربي، فقد كان ولا زال يمثل مصدر إلهام للشعراء والأدباء قديما وحديثا بما يكتسيه شعره من قوة وتدفق وإحساس صادق نابع من تجربة شعرية فريدة تمثل اللغة بمستوياتها المختلفة أبرز معلم فيها. فاللغة العربية مطواعة مرنة، لها من الإمكانات الذاتية، ومن الطاقات التعبيرية المختلفة، ما يجعلها قادرة على استيعاب كل جديد، والتعبير عن كل القضايا والمواقف اللغوية المتجددة، بوسائل وطرق مختلفة لعل في مقدمتها ظاهرة الاشتقاق وما توفره من ألفاظ جديدة انطلاقا من صيغة واحدة مرورا بآليات التوليد اللغوي المختلفة من ترادف وتضاد ونحت وصولا إلى الدخيل والمعرب.

ولعل أهم ما يميز شعر المتنبي لغته الثورية المتأبية على المقاييس الصرفية والنحوية التي تفرضها اللغة، لتجمح إلى خلق أنساق وتراكيب لغوية فريدة عكست بحق شخصية المتنبي الثائرة التي تنطلق من طموحه الذي لا يحدّ، وإحساسه بالتفرّد والتعالي، لتصبح اللغة الشعرية عنده انعكاسا للصورة النَّفسية الداخليّة المتمثلة في إحساس الشاعر وما يجول في خاطره ويختلج في نفسه. وقد استطاع بفضل عبقريته الفذة أن يترجم هذه المشاعر إلى أبيات وقصائد بالغة الرَّوعة والجمال، ومن أجل هذا كان للنقّاد القدماء الكثير من المآخذ عليه حول لغته الشعريَّة فيما أسموه بالتّعقيد، والتكلّف، والتعسّف وغيرها.

هذه اللغة كانت السبيل الوحيد أمام المتنبي للتعبير عما يجيش في خاطره من مشاعر وأحاسيس ترفض الواقع وترتقي إلى عوالم أخرى لا يستطيع وصفها إلا شاعر مثله.

و بدافع من طموحه الذي لا يحدّ، وإحساسه بالتفرّد والتّميز، سعى دوما إلى خلق أنساق لغوية جديدة في تركيبها، يعتمد فيها على نبذ المقاييس المنطقيّة الخارجيّة المتمثلة في القواعد النحوية والصرفية والتركيبية، لتصبح اللغة الشعرية عنده انعكاسا للصورة النّفسية الداخليّة المتمثلة في إحساس الشاعر وما يجول في خاطره، وقد استطاع بفضل عبقريته الفذة أن يترجم هذه المشاعر إلى أبيات وقصائد بالغة الرَّوعة والجمال. ومن أجل هذا كان للنقّاد القدماء الكثير من المآخذ عليه حول لغته الشعريَّة، فيما أسموه بالتّعقيد، والتكلّف، والتعسّف وغيرها[1]

وربَّما وجد في هذه اللغة التي رأى فيها النقّاد تعسّفا، وتكلّفا، وخروجا عن المنطق، الطّريق الأمثل للتّعبير عن ثوريّته[2] الَّتي لا تحدّ، وإحساسه بالتميّز والشموخ. وهو ما دفعه إلى محاولة اكتشاف علاقات جديدة، وتراكيب جديدة، ولغة جديدة متفرّدة تتناسب مع ما يجول في خاطره. فكثيرا ما تكون لغته غريبة في تركيبها بما تحتويه من تقديم وتأخير، وحذف، وحسن التّقسيم، ومن استعمال خاص للعطف، وللطِّباق والمقابلة، وغيرها من ألوان البيان والبديع.

1-منهج المتنبي مع اللغة :

أ-ملامح القوة :

إنّ المنهج الذي اتَّبعه المتنبّي في تعامله مع اللّغة وتركيبها وبنيتها، مكنّه من الارتقاء إلى أعلى درجات الإبداع . إلاّ أنّه لم يسلم من الوقوع في أخطاء مكنّت الكثير من الأدباء والنّقاد من الطعن في لغته الشّعرية . فمن ناحية قوَّة هذا المنهج ما قاله في قصيدته التي مدح فيها سعيدا بن عبد الله بن الحسين الكلابي المنبجي والتي يقول في مطلعها[3]:

أَحْيَا وأَيْسَرُ مَا قَاسَيْتُ مَا قَتَلاَ * وَالبَيْنُ جَارَ عَلَى ضَعْفِي ومَاعَدَلاَ

فنلاحظ أنّ في البيت تقديم وتأخير، يقول ابن جني:«أي الشيء الذي يقتل أحيى وأيسر ما لاقيت، أو ما ألقاه. وإذا جعل على هذا الوجه، فقد حذف المضاف إليه أحيى ما لاقيت وأيسر ما لاقيت»[4]، كما أنّه استطاع أن يخلق نسقا تركيبيا جديدا للّغة فعطف بين الفعل " أحيا " وبين أفعل

التفضيل " أيسر" وهو اسم. كما زاوج ما بين " ما قاسيت " و" ما قتلا " وكذا استخدامه المتكرِّر " لما " في: "ما قاسيت " و" ما قتلا " و" ما عدلا ". وهذا الذي قدمناه مثال نراه مطردا في شعر المتنبيِّ وهو يكشف – على حد تعبير أيمن زكي العشماوي « عن عالم خاص من الاستخدام المتفرّد للّغة يعبّر عن طموح الشاعر وتعاليه وتفرده »[5]، كما جاء شعر المتنبي فريدا في رقته وتنوّعه، وغدا مرآة لنفسه عندما اتصل بسيف الدولة الحمداني، الذي وفر له البيئة العربية المستقلة، إضافة إلى حياة الأمير الصاخبة بالأحداث، والمناسبات خاصة جهاده ضد الروم. وقد وضع المتنبّي في حسبانه مهابة الموقف الذي ينتظره في مثل هذه البيئة الخاصة التي لم يسبق له أن احتك بمثلها من قبل، فشحذ لأجل ذلك كل طاقته، وحرص كل الحرص أن تكون قصيدته الأولى في سيف الدولة كفيلة لرفعه إلى أعلى مكانة أمام العيون المصوبة نحوه، فأخضع قصيدته لنظام دقيق يتناسب مع خطورة الموقف وأراد منذ البيت الأول في قصيدته الأولى أن يبهر الحضور بتمكنه، ودقة بيانه، وتعقيده اللغوي، وألاعيبه في التراكيب، وقد جره هذا الأمر إلى البعد عن المألوف من الصيغ، والتراكيب ليثير بذلك جدلا بين اللغويين والنحويين ضل مستمرا ليس في عصره فحسب بل تجاوزه إلى العصور التي تلته. وقد أظهر مقدرته الفائقة على التصرف في الكلام والبعد عن المألوف في قوله في البيت الثاني من القصيدة: [6]

ومَا أنَا إلاّ عَاشِقٌ كُلُّ عَاشِقٍ * أَعَقُّ خَلِيلَيْهِ الصَّفِيَّيْنَ لائِمُهُ

فنلاحظ كيف يتلاعب بالألفاظ في الشطر الثاني من البيت فجمع بين معنى العقوق ومعنى الصفاء، إذ كيف يكون الخليل الصفي عاقا؟ ولكي يظهر لسامعيه أنّ هذا الإغراب مقصود متعمد أشفعه بالبيت الثاني الذي يقول فيه[7]:

وَقَد يَتزَيَّا بالهَوى غَير أهلِهِ * ويَستصحِب الإنسانُ مَن لاَ يُلائمُهُ

فاللفظ "يَتَزَيَّا" من الألفاظ الغريبة في اللغة إذ القياس يَتَزَوى لأنّه من الزَي وأصله زَوْيٌ فانقلبت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها – كما يذكر ابن جنيّ قي تفسير البيت- ثم ينتقل من الخبر إلى الإنشاء فيدعو قائلا[8]:

بُلِيتُ بَلَى الأطلاَلِ إنْ لَمْ أَقِف بِهَا * وُقُوفَ شَحِيحٍ ضَاعَ فِي التُّرْبِ خَاتمُه

وفي البيت صورة فنيّة تتمثل في مشهد الشحيح الذي يجهد نفسه باحثا عن خاتمه المفقود في التراب. أما الميزة الرئيسية في شعر المتنبّي فهي تطابق شخصيته التي نعرفها من خلال شعره مع شخصيته التي نعرفها من خلال سيرته الذاتية وتاريخ عصره، فهو ذلك الإنسان المعتد بنفسه، المتعثر في تحقيق أمله، الناقم على أهل زمنه، فهو القائل[9]:

وَمَا الدَّهْرُ إِلاَّ مِنْ رُوَاةِ قَلاَئِدِي * إذا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدهْرُ مُنشِدَا

وهو القائل[10]:

أهُمُّ بِشَيءٍ وَاللَّيالِي كَأنَّها * تُطارِدُنِي عَنْ كَونِهِ وأُطارِدُ

وَحِيدٌ مِنَ الخُلاَّنِ في كُلِّ بَلدَةٍ * إذا عَظُمَ المَطلُوبُ قَلَّ المُساعِدُ

ومما يلاحظ من خلال شعره حنكته، وعمق وعيه السياسي، ونظرته العميقة في شؤون الحكم والسلطة، بل في شؤون الرقي الحضاري للأمة بشكل عام بعدما سرى في جسمها الفساد ومزقها التناحر والاختلاف وتسلط عليها ملوك أعاجم فيقول[11]:

وَإِنَّما النَّاسُ بالمُلوكِ وَمَا * تُفْلِحُ عُرْبٌ مُلوكُهَا عَجَمُ

فِي كُلِّ أرضٍ وَطِئْتُهَا أُمَمُ * تُرْعَى بِعَبدٍ كَأنَّهُم غَنَمُ

لقد حاولت في هذه الومضات الخاطفة أن أقف على ملامح القوة في شعر المتنبي من خلال تعامله مع اللغة، وجرأته في استخدام الألفاظ من أجل ابتكار معان جديدة. وكذا من خلال ملامح شخصيته التي طبعها الاعتزاز بالنفس، والخيبة في تحقيق الأمل، والسخط على أهل زمانه. وسوف أعرض في العنصر اللاحق إلى ملامح الضعف في لغته الشعرية لنلاحظ كيف أنّ النقاد قد تحاملوا عليه بعض الشيء خاصة في استعماله لغريب اللغة.

ب-ملامح الضعف : 1- استعماله اللّفظ غير المناسب في المعنى : كقوله[12] :

فَإِنْ تَكُنِ الدَّولاتُ قِسْما فَإِنَّهَا * لَمَنْ وَرَدَ المَوْتَ الزُّؤامَ تَدُولُ

قال الصَّاحب: «قوله "الدَّولاتُ" و"تَدُولُ" من الألفاظ التي لو رزق فضل السكوت عنها لكان سعيدا»[13]، مع أنّ صاحب اللِّسان قد أثبتهما في ما دتي "دور" و"دول" على التوالي إذ يقول: «الدوائر تدور والدوائل تدول»[14]ويقول في جمع دولة:«والجمع دُولات ودُوَل»[15]وكقوله[16]:

خَلاَئِقُ لَوْ حوَاهَا الزِّنْجُ لانْقَلَبُوا * ظُمْيَ الشِّفاهِ جِعَادَ الشَّعرِ غُرَّانا

قال ابن القطاع : « قد أخذ عليه قوله " خلائق " الخ، إذ كأنه قال : لانقلبوا من الجعودة إلى الجعودة، لأنّ شعور الزِّنج جعاد »[17]. وقال الثعالبي : « والزّنجي لا يوجد إلاّ جعد الشعر فكيف ينقلبون عن الجعودة إلى الجعودة وقد احتج عنه أصحاب المعاني بما يطول ذكره »[18] .

2 – **استكراه اللفظ وتعقيد المعنى** : كقوله[19] :

وَفَاؤُكُمَا كالرَّبعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهَ * بِأَن تُسْعِدَا والدَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهُ

يقول الجرجاني : «ومن يرى هذه الألفاظ الهائلة، والتعقيد المفرط، حتَّى إذا فتشها، وكشف عن سترها، وسهر ليالي متوالية فيها حصل على أنَّ وفاؤكما يا عاذليّ بأن تسعداني إذا درس سجاي، وكلما ازداد تدرسا ازددت له شجوا كما أن الرَّبع أشجاه دارسه » [20] .

3 – **تصنعه الغريب الوحشى** :

وإذا كان المتنبي من المحدثين، وقد اتبع أهل زمانه في اختيار الألفاظ المعتادة، والمألوفة بينهم، إلاَّ أنّه عَمَد إلى استعمال التعابير المتكلفة المصطنعة، كتصنعه الغريب الوحشي وكأنّه من أهل البادية الأقحاح، محاكيا في ذلك فحول الشعراء يقول الثعالبي: « ثم تعاطى الغريب الوحشي، والشاذ البدوي، بل ربما زاد في ذلك على أقحاح المتقدمين »[21]. فمن ذلك قوله [22]:

وَمَا أَرْضَى لِمُقْلَتِهِ بِحُلْمٍ * إِذا انْتَبَهَتْ تَوَهَّمَهُ ابْتِشَاكا

فانظر إلى استعماله لفظ "الابتشاك" الَّتى تعني: «البَشْكُ والابْتِشَاكُ: الكَذِبُ أو خلط الكلام بالكذب»[23]. وأصلها من الخياطة غير المنتظمة « البَشْك : الخياطة المستعجلة المتباعدة»[24]. وكقوله في وصف الغيث [25]:

لِسَاحِيهِ عَلَى الأَجْدَاثِ حَفْشُ * كَأَيْدِي الخَيْلِ أَبْصَرَتْ المَخَالِي

السَّاحي : القَاشِر، «سَحوتُ الطِّين عن وجه الأرض سَحَيْتُه إذا حَرَفْتُه ... المِسْحَاةُ : الآلَةُ الَّتي يُسْحَى بها»[26]. و«في حَدِيثِ أُمِّ حَكيم أَتته بكتفٍ تَسْحَاهَا : أي تقشرها وتَكْشِط عنها اللَّحم»[27]، «وأصل السَّح : الصَّبُ »[28]. «أمَّا الحَفْشُ فَإِنَّهُ مَعْرُوفٌ، وهُوَ كَالبَيتِ الصَغِيرِ، وَسُمِيَّ

حَفْشًا لِضِيقِهِ وانْضِمامِه، والتَّحَفُّشُ الاجْتِمَاعُ والانْضِمَامُ»[29]، وفي اللِّسان : « الحَفْشُ : مَصدر قَولكَ: حَفَشَ السَّيْل إِذَا جَمَعَ المَاءَ مِنْ كلِّ جَانبٍ إِلى مُسْتَنْقَعٍ واحدٍ »[30]. ومن غريب ألفاظه كذلك قوله[31]:

أسائِلُها عنِ المُتَدِيِّريها * فَلاَ تَدْرِي ولا تُذْرِي دُموعَا

وقد طُعِنَ عليه في قوله " مُتَدِيِّرِيهَا" قال الصاحب: «لفظة المتديِّريها لو وقعت في بحر صاف لكدَّرته ولو ألقي ثقلها على جمل سام لهدّه، وليس للمقت فيها نهاية ولا للبرد معها غاية »[32] والمَتَدِيِّرُوها : المتَّخِذوها دارا. قال الصاحب: « ومن أطمِّ ما يتعاطاه التَّفاصح بالألفاظ النَّافرة والكلمات الشاذة، حتّى كأنّه وليد خباء وغدي لبن لم يطأ الحضر ولم يعرف المصر »[33]، وهذا أمر مقصود من طرف المتنبي يهدف من ورائه إلى إبهار سامعيه، باستعمال هذا النوع من الألفاظ الشاذة والنافرة، تعبيرا منه عن عمق ثقافته، واطلاعه على لغات العرب، فانظر إلى قوله[34] :

أَيَفْطِمُه التَّوْرابُ قبل فِطَامِه * ويأكلُهُ قبل البلوغ إلى الأكل

فقد استعمل لفظ " التَّوْراب " وهو لغة في التُّراب، وفيه لغات : تُراب، تَوراب وهي التى استعملها المتنبي، وتورَب، وتَيْرَب، تُرْب، وتُربة، وتَرْباء، تَيْرَاب، وتِرْيب، ويجمع على : أتربة وتربان[35]. ومن ألفاظه الذاهبة في الإغراب قوله[36] :

بالوَاخِدَاتِ وَحَادِيهَا وَبِي قَمَرٌ * يَظَلُّ مِنْ وَخْدِهَا فِي الخِدْرِ حَشْيَانَا

وحشيان بالحاء المهملة من الغريب الوحشي الذي لا يؤنس إليه . قال ابن سيدة: « ورجل: حَشٍ وحَشْيان من الرَّبو وقد حَشِي بالكسر»[37]. وغرابة اللفظ أو شذوذه لا تنفي وجود الاستعمال، وقد احتج عنه العكبري بقوله : «وأنكر بعض من لا يعرف اللّغة على أبي الطيب لفظه حشيان، وقال لم أسمعها، ولم يسمع قول الآخر [38]:

فَنَهْنَهْتُ أُولى القومِ عَنْ ضَربةٍ * تَنَفَّس مِنْهَا كلُّ حَشْيَانَ مُحْجَرِ

وجاء في الفائق : «حشى وهي الّتي أصابها الحشى وهو الرّبو، وقد حشيت، والرجل حَشْيان وحشٍ[39]، كما جاء في غريب الحديث لابن الجوزي : «وقال لعائشة مَالَكِ حَشْيَاءُ رابية، أي قد وقع الرَّبوُ عليك، وهو الحشَا يعني البُهر ورجل حشيان وامرأة حَشيَا على فَعَلَى بلا مدٍّ ولا

همز»[40] . وربّما يرجع أصل هذه الظاهرة عند المتنبي إلى جذوره التعليمية باعتباره كوفي النشأة، فقد تميز اللغويون الكوفيون بالإكثار من رواية الغريب المهجور في مصنفاتهم[41].

4 – اختراع بعض الأوزان الصرفية :

وقد يَعمَد إلى اختراع بعض الأوزان الصرفية التي لم يسمع بها كثير من اللغويين، وهذا يدخل ضمن المنهج الذي اختطَّه المتنبي لنفسه في تعامله مع اللّغة فتارة يعمد إلى الغريب الشاذ فيودعه شعره وتارة أخرى يخترع الألفاظ اختراعا كقوله[42] :

أحادٌ أم سداس في أحاد * ليبلتنا المنوطة بالتَّناد

فلفظة " سداس " غير مروية عن العرب، وإنّما روي أحاد وثناء وثلاث ورباع. قال ابن هشام: «واستعمال سداس، وأكثرهم يأباه، ويخص العدد المعدول بها دون الخمسة»[43]. إلاّ أنّ هناك من يروي أنّه مسموع قال ابن عقيل: «وزعم بعضهم أنّه سمع أيضا في ستة وسبعة وثمانية وتسعة، نحو سداس ومسدس، وسباع ومسبع، وثمان ومثمن، وتساع ومتسع »[44].

فالألفاظ المروية ما دون الخمسة معدولات لا يتجاوز بها السماع ولا يسوغ فيها القياس على رأي الجرجاني يقول : «وإنّما يقولون : جاء القوم أحاد ومثنى وثلاث : أي واحدا واحد واثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وبذلك نطق القرآن، قال الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ، أَنْ تَقُومُوا لله مَثْنَى وفُرَادَى ﴾ أي اثنين اثنين، وقال تعالى : ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وثُلاثَ ورُباعَ﴾ أي اثنين اثنين وثلاثا ثلاثا، وأربعا أربعا»[45]. وقد جاء في الشاذ لفظة "عشار" التي استعملها الكميت في شعره[46]:

فَلَمْ يَسْتَرِيثوكَ حتَّى عَلوتَ * فوق الرّجال خصالاً عُشار

قال أبو عبيد: « ولم يسمع أكثر من أُحاد وثُناء وثُلاث ورُباع إلاّ في قول الكميت وذكر البيت»[47].

5 – مخالفة القياس النحوي :

وقد أودع المتنبي شعرَهُ لغة شاذة مردودة لدى اللّغويين والنحاة كقوله[48] :

فِدًى مَنَ عَلَى الغَبْراءِ أَوَّلُهم أَنَا * لهذَا الأَبِيِّ المَاجِدِ الجَائِدِ القِرْمِ

قال الثعالبي: «ولم يحك عن العرب الجائد، وإنّما المحكي: رجل جواد، وفرس جواد، ومطر جواد» [49]. وكقوله[50]: فَأَرْحَامُ شِعْرٍ يَتَّصِلنَ لدُنَّهُ * وأرْحامُ مالٍ لا تنِي تَتَقطَّعُ

فأورد " لَدُنْ " بتشديد النون . قال أبو الفتح :« قوله " لَدُنَّه " فيه قبح وشناعة، وليس هو معروفا في كلام العرب»[51]. وكقوله[52] : شَديدُ البَعْدِ مِنْ شُزُبِ الشَّمُولِ * تُرُنْجُ الهِنْدِ أو طَلْعُ النَّخِيلِ

أخذ عليه قوله "تُرُنج" وهو مما تلحن فيه العامة والفصيح "أُتْرُنْج" جاء في اللِّسان: «والعامَة تقول: أُتْرُنْجٌ وتُرُنْجٌ والأول كلام الفصحاء»[53]. وقد حكى أبو زيد لغة " التَرُنج " قال ابن قتيبة في أدب الكاتب : « وأبو زيد يحكي تُرُنجة وتُرُنج أيضا »[54]. وقوله [55]:

بَيْضَاءُ يَمْنَعُهَا تَكَلُّمَ دَلُّهَا * تِيهًا وَيَمْنَعُها الحَياءُ تَمِيسَا

فنصب " تميس " مع حذف أن وهو ضعيف عن أكثر النحويين على حد قول الثعالبي، إلاّ أنّ العكبري جوَّز المسألة وأورد احتجاجه بذكر ما يلي : « قول طرفة :

ألا أيُّهذا الزَّاجِري أحضُرَ الوَغَى * وأنْ أَشْهَدَ اللذَّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخلِدي

وقراءة عبد الله : «لا تعبدوا إلا الله» فنصب بتقدير أن مع حذفها. وقول عامر بن الطفيل : *ونهنهت نَفْس بعد ما كِدْتُ أفعلَه * »[56] وكقوله[57]:

وَتَكَرَّمَتْ رُكبَاتُها عَنْ مَبْرَكٍ * تَقَعَانِ فيهِ ولَيْسَ مِسْكًا أَذْفَرَا

فذكر في الشطر الأول من البيت "ركبات" وهي جمع ركبة ثم انتقل إلى التثنية في الشطر الثاني فقال " تقعان " قال الثعالبي:«وهو ضعيف غير سديد في صناعة الإعراب»[58]. وكقوله[59]:

لَيْسَ إلاّكَ يَا عليُّ هُمَامٌ * سَيْفَهُ دُونَ عِرْضِهِ مَسْلُولُ

وقوله[60] : لَمْ تَرَمَنْ نَادَمْتَ إلاَّ كَا * لاّ لِسِوَى وُدِّكَ لِي ذَاكَا

فجاء بالضمير موصولا في قوله " إلاّ ك " وحقه أن يأتي منفصلا على حد قول الثعالبي كما في قوله تعالى: ﴿ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾[61]. إلاّ أنّ هناك من جوّز مثل هذا الأمر لضرورة الشّعر. وكقوله في وصف الشيب[62] :

إِبْعَدْ بَعِدْتَ بَياضًا لا بياض لَهُ * لأَنْتَ أَسْوَدُ في عَيْنِي مِنَ الظُّلَمِ

قال أبو الفتح : « لا يقال أسود من كذا، لأن الألوان لا يبنى منها أفعل التفضيل »[63]. وقال ابن هشام :« وذلك ممتنع في الألوان »[64]. والصحيح عند اللغويين أن يقال: أشدّ سوادا وحمرة وخضرة. وممّا أخد عليه كذلك قوله[65] :

جَللاً كما بِي فَلْيَكُ التَّبريحُ * أغِذَاءُ ذَا الرَّشَا الأَغَنّ الشِّيحُ

فحذف النون من " يكن" إذا استقبلها الألف واللام خطأ عند النحويين لأنّها تتحرك إلى الكسر، وإنّما تحذف استخفافا إذ أسكنت كما في قوله تعالى: ﴿ ولم تك شيئا ﴾[66].وكقوله[67] :

لَعَظُمْتَ حَتَّى لَوْ تَكُونُ أمانَةً * مَا كَانَ مُؤْتَمَنا بِهَا جِبْرِينُ

قال الصَّاحب: «وقلب هذه اللاَّم إلى النون أبغض من وجه المنون ولا أحسب جبريل عليه السلام يرضى منه بهذا المجاز»[68]، إلاّ أنّ كتب التفاسير تذكر أنّ في " جِبريل" لغات. وقد اختلفوا في عددها، وذكروا من بينها "جِبرين" قال الفرّاء هي لغة بني أسد[69]، وفيها أيضا: جَبْرَئِيل (بفتح الجيم والرَّاء وبعدها همزة مكسورة) قال الفراء : وهي لغة تميم، التي تمثل في التاريخ اللغوي رمزا للبيئات البدوية عامة[70]، وقيس، قال الزّجاج: هي أجود اللّغات [71]، أمّا جبريل فهي لغة أهل الحجاز التي تمثل البيئات الحضرية[72] .

كانت هذه بعض النماذج الشعرية، وقفت من خلالها على قضية أساسية في شعر المتنبّي، تلك هي قضية تعامله مع اللّغة في بنيتها وتركيبها، ولا حظنا كيف أنّ شاعرنا كان يسعى جاهدا، من أجل إيجاد أنساق لغوية جديدة، يهدف من ورائها إلى خلق لغة جديدة تعبِّر عن تعاليه وطموحه وثوريَّته وهي من أهم المعالم البارزة في شخصية المتنبِّي، والتي أراد أن يعكسها من خلال هذه اللّغة الشعرية الخاصة، كما كان يهدف إلى إبهار سامعيه من أهل زمانه خاصة من خلال استعماله الغريب الوحشي تعبيرا منه عن عمق ثقافته، فهو القائل[73] :

مَا نَالَ أَهْلُ الجَاهليَّةِ كلُّهُمْ * شِعْرِي وَلاَ سَمَعتْ بِسِحْرِي بَابِلُ

وقد أفلح في سحره هذا إلى حدٍّ بَعيدٍ . فافتتن النّاس بشعره وعكف العلماء والأدباء والنقاد، وعلى مرّ العصور على وضع الشروح المتعددة لديوانه، وإبراز محاسن شعره ومساوئه وتدبر معانيه، والوقوف على أمثاله وحكمه .

وفيما ما تعلق بوجوه الطعن الّتي أخذت عليه في بعض الألفاظ، والتراكيب اللغوية، فهو يعود أساسا إلى اختلاف لغات العرب وتعددها في اللفظ الواحد، مما جعل بعض الطاعنين الذين لم يصل إلى أسماعهم هذه اللغات إنكارها على المتنبّي . كما لاحظنا مع لفظ " جبريل ". فالشاعر يعتمد في صناعته اعتمادا كبيرا على ما توفره الألفاظ من إيحاءات وإشارات، وكما يقال: المعنى في بطن الشاعر، قد يدركه البعض ويخفى عن البعض الآخر، وقد سئل كثير من الشعراء عما يقصدون بقولهم فلم يوضحوا وبعضهم وافق على أكثر من تفسيرٍ لشعره. فإنّ للغة الشعرية طبيعة خاصة تعتمد اعتمادا كبيرا على الألوان والظلال المختلفة التي تثيرها الكلمات[74].

مراجع البحث وإحالاته

(1) عقد الجرجاني في كتابه " الوساطة بين المتنبي وخصومه فصلا أسماه (التعقيد في شعره) ذكر فيه ما استغلق من شعر المتنبي . ص 98-100 .

(2) المتنبي والقرامطة للدكتور محمد محمد حسين، منشورات دار الرفاعي للنشر وللطباعة والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى 1401 ه 1981 م: ص16.

(3) التبيان في شرح الديوان : ج 3/ 162/ البيت : 1.

(4)نفسه : ج3 / 162

(5)قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني، زكي العشماوي، دار النهضة العربية ،بيروت، ط 1، 1983 : ص 221.

(6)التبيان:ج3/ 327/ البيت:2.

(7)نفسه:ج3/ 327/ البيت:3.

(8)نفسه:ج3/ 328/ البيت:4.

(9)التبيان:ج1/ 290/ البيت:36.

(10)نفسه:ج1/ 270.

(11)نفسه:ج4/ 59/ البيت:2.

(12)التبيان في شرح الديوان : ج 3/ 110.

(13)يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط القاهرة: ج1/ 186.

(14)اللّسان:ج4/ 298/ دور.

(15)المصدر نفسه : ج 11 / 252 / دول .

(16)التبيان: ج 4/ 228 / البيت: 31.

(17)السابق: ج 4 / 229 (حاشية شرح الديوان).

(18)يتيمة الدهر: ج 1 / 190.

(19)التبيان: ج 3 / 325 / البيت: 1.

(20)الوساطة بين المتنبي وخصومه، الجرجاني (القاضي علي بن عبد العزيز)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1386- 1966م: ص 98 .

(21)اليتيمة : ج1/ 196 .

(22)التبيان : ج2/ 392 / البيت :28 .

(23)اللسان : ج10/ 400/ بشك.

(24)النهاية في غريب الحديث لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزرئ، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، 1399ه 1979 م: ج1/ 130/ بشك

(25)التبيان: ج3/ 13/ البيت 18.

(26)اللّسان: ج14/ 372/ سحا.

(27)النهاية في غريب الحديث : ج2/ 348/ سحا .

(28)غريب الحديث لأبي سليمان أحمد بن محمد إبراهيم الخطابي، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزباوي، جامعة أم القرئ، 1402ه :ج2/ 208.

(29)نفس المصدر : ج2/ 584 .

(30)اللّسان : ج6/ 286/ حفش .

(31)التبيان: ج2/ 250/ البيت:2

(32)اليتيمة: ج1/ 197.

(33)اليتيمة: ج1/ 198.

(34)التبيان: ج3/ 50/ البيت: 23.

(35)نفسه:ج3/ 50 (حاشية شرح الديوان).

(36)نفسه: ج4/ 221/ البيت : 4 .

(37)اللّسان: ج14/ 179/ حشا سصيث/ 8.

(38)التبيان : ج4/ 221/ البيت :4 (والبيت الذي ذكره العكبري منسوب في اللِّسان لأبي جندب الهنذلي) انظر اللِّسان :ج14/ 179/ حشا.

(39)الفائق في غريب الحديث لمحمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة، بيروت الطبعة الثانية، تحقيق : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ج1/ 286 .

(40)غريب الحديث، لابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي)، تحقيق : د. عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1985 م: ج1/ 217 .

(41)تاريخ الأدب العربي: العصر العباسي الثاني، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط:8: ص143.

(42)التبيان : ج1/ 353/ البيت:1.

(43)مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري، تحقيق : د. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، الطبعة السادسة، 1985 م : ص 70.

(44)شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك، لابن عقيل (بهاء الدين عبد الله)، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد،دار الفكر، بيروت،الطبعة الثانية، 1985م: ج3/ 326.

(45)الوساطة : ص 99 .

(46)الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت، لا ط، لا ت:ج3/ 181.

(47)اللِّسان : ج4/ 572/ عشر .

(48)التبيان : ج4/ 55/ البيت:27.

(49)اليتيمة : ج1/ 193 .

(50)التبيان : ج2/ 240/ البيت:14.

(51)نفسه : ج2/ 240 (حاشية الديوان).

(52)السابق : ج3/ 90/ البيت:1.

(53)اللِّسان : ج2/ 218/ ترج .

(54)أدب الكاتب، ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة السعادة، مصر، ط:4، 1382ه- 1963م: ص 290 .

(55)التبيان : ج2/ 195/ البيت : 8 .

(56)نفسه : ج2/ 195 .

(57)نفسه : ج2/ 169/ البيت : 36 .

(58)اليتيمة : ج1/ 194 .

(59)التبيان : ج3/ 156/ البيت : 30 .

(60)نفسه : ج2/ 383/ البيت : 1

(61)الإسراء : الآية 67 .

(62)التبيان : ج4/ 35/ البيت :

(63)نفسه : ج4/ 35 (حاشية الديوان).

(64)مغني اللبيب عن كتب الأعاريب : ص 703 .

(65)التبيان : ج1/ 243/ 1 .

(66)مريم : الآية 9 .

(67)التبيان : ج4/ 208/ 2 .

(68)اليتيمة : ص 194.

(69)تفسير القرطبي،(أبو عبد الله)القرطبي، دار الكتب العلمية،لاط،لات:ج2/ 36.

(70)في علم اللغة العام، عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط:7، 1416ه-1996م: ص228

(71)تفسير الألوسي،(محمود بن عبد الله الحسيني) الألوسي، دار إحياء التراث العربي:ج1/ 331.

(72)تفسير الطبري،(ابن جرير) الطبري، دار المعرفة، لاط، 1990 م:ج1/ 341.

(73)التبيان: ج3/ 259/ البيت:38.

(74)علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السّعران، دار الفكر العربي، القاهرة، ط:2، 1417ه-1997م: ص291.